أدب اللفظ وأدب المعنى

للاستاذ احمد امين

من قديم اختلف علماء البلاغة ، أهى فى اللفظ أم فى المعنى ، وقد عقد عبد القادر الجرجانى فصلا ممتعاً فى آخر كتابه دلائل الاعجاز ذكر فيه حجج الفريقين ، فقد كان فريق يرى أن المعانى مطروحة أمام الناس ، والبليغ من استطاع أن يصوغها صوغاً جميلا ، وانما يتفاضل الأدباء بجودة السبك وحسن الصياغة ، ويرى الفريق الآخر أن المعاني هى مقياس التفاضل ، وأن الأديب يفضل الأديب بغزارة معانيه ، وجدة أفكاره ، وأظن أن الزمان فصل فى هذه القضية ، اذ أصبح واضحاً أن حسن الصياغة ، وجودة المعانى ، عنصران أساسيان لابد منهما للأديب ، وأن من تجرد من إحدهما لايسمى أديباً بحال ، وأن المثل الأعلى للأديب معان غزيرة سامية ، وصياغة جيدة محكمة

غير أن هناك — ولا شك — مواضع تراعى فيها المعانى اكثر مما يراعي اللفظ وصياغته ، كفصول النقد الأدبى ، والمقالات العلمية الأدبية ، والمقالات التاريخية الادبية ، وتراجم الأشخاص ونحوها ، فالغاية من هذه الموضوعات ليست اللذة الفنية ، وانما الغرض الأولى هو المعانى والحقائق ، فيجب ان تكون غزيرة فياضة ، وكل ما نتطلبه فيها من اللفظ أن يعبر عن هذه المعانى في دقة ووضوح ، أما القصد الى محسنات البديع ومجملات الصناعة فلا داعى له ، وربما كان افراط الكاتب في هذه المحسنات حجباً للمعاني عن الأنظار ، ومضلة للعقول عن الوصول الى حقيقة المعاني ، وهى أقوم مافى هذه الموضوعات .

وهناك ضرب آخر من الادب كالشعر والقصص فيه مراعاة اللفظ وحسن السبك فى المنزلة الأولى ، ولست اعنى ان الحقائق والمعانى فيهما مجردة من القيمة بل هى كذلك من مقدماتهما ، والشاعر الذى يجيد السبك ولا يجيد المعنى ليس من شعراء الطبقة الاولى ، وخير الشعراء من صح حكمه ، واتسعت تجاربه فى الحياة . وكان له علم عميق بكثير من الاشياء التي حوله ثم صاغ ذلك كله صياغة جميلة ، وهذا الأدب الصرف كالشعر والقصص والقطع الفنية الأدبية ، ليس الغرض الأولى منه نقل المعاني كما فى الصنف الأول ، وانما الغرض منه اثارة عواطف القارىء والسامع والألفاظ — كما يظهر لى — لم توضع لنقل العواطف ، وانما وضعت لنقل المعاني والألفاظ أعجز ماتكون عن نقل عاطفة الاديب الى القارىء . فكيف انقل اعجابي بالطبيعة أو أنقل حبا ملأ جوانحى ، او غضباً استفزنى ، أو رحمة ملكت مشاعري ؟ لم توضع الالفاظ لشىء من ذلك ، انما وضعت لنقل مقدمات ونتائج منطقية ، ولكن ما حيلتنا وقد خلقنا عاجزين لم نمنح لغة العواطف ، ولا بد لنا من التعبير عنها ونقلها الى قارئنا وسامعنا — لذلك استخدمنا لغة العقل مرغمين ، وأردنا أن نكمل هذا العجز بضروب من الفن ، كموسيقى الشعر من وزن وقافية ، وكالسجع ، وكل ضروب البديع ، وليس القصد منها الا أن تكمل نقص الألفاظ فى أداء العواطف .

فى هذا النوع من الأدب ليس من الضرورى أن تكون معانيه جديدة ، وربما يستطيع الاديب أن يجعل من المعنى المطروق قصيدة رائعة ، أو قصة ممتعة ، وكل مافيها من جديد صياغتها الجديدة ، وخيالها المبتكر ، وليست وظيفة الأديب فيها أن يعلم الحقائق ، انما وظيفته أن يثير مشاعر الناس بها ، ويعبر عما لايحسنون التعبير عنه ، وان كانت المعانى فى نفوسهم ، وبين سمعهم وبصرهم . كل انسان يشعر بجمال الوردة ، ولكن الاديب يملأ مشاعرك بجمالها ، ويوحى اليك بمعان ترتبط بها ، مثل اقتران تفتحها بتفتح الشباب ، ونشوة الأمل ، أو ماتبعث من شجن . وجودة الأسلوب وحسن النظم قد يرقيان بالمعانى المألوفة فيخرجانها فى شكل جذاب ولكن لايمكن الأديب على كل حال أن يتبوأ مكاناً عالياً اذا اعتمد على الأسلوب وحده وكان مصاباً بالفقر العقلى .

فى ادب كل أمة نرى أدب اللفظ وأدب المعنى ، وفى الادب العربي أمثلة واضحة لذلك ، فمقامات الحريرى والبديع ادب لفظ لامعنى ، قل أن تعثر فيهما على معني جديد ، او خيال رائع ، وهما من الناحية القصصية في ادني درجات الفن ، ولكنهما تؤديان غرضا جليلا من الناحية اللفظية ، ففيهما ثروة من الالفاظ والتعبيرات لاتقدر ، ويظهر أن مؤلفيهما قصدا الى تعليم اللغة وامداد المتعلم بثروة كبيرة من الالفاظ والامثال والتعبير ، وتحايلا على ذلك بهذا الوضع الجذاب ، فان كانا قد قصدا الى ذلك فقد نجحا نجاحا تاماً وان كان قصدهما غير ذلك فلا . وشعراء القرون المظلمة بعد سقوط بغداد وكتابها أدباء ألفاظ : رواء في العين ، ولا شىء فى اليدين ، بل ان ادب كثير منهم لاهو أدب لفظ ولاهو أدب معنى ، يحسبه الظمآن ماء حتي اذا جاءه لم يجده شيئا ، والمعرى فى لزومياته أديب معنى لا أديب لفظ ، غزرت معانيه وقصرت ألفاظه ، حاول ان

يدخل المحسنات البديعية فى شدة ففشل ، قد التزم مالا يلزم فأضاع مايلزم ، والمتنبي — على الجملة — اديب لفظ ومعنى قد وقع من معانى الحياة على ما لم يقع عليه من قبله ، ثم صاغه صياغة قوية حببته الى النفس .

وبعد فيظهر لى أن الزمن سائر الى تقويم المعاني أكثر من تقويم الالفاظ ، وشأن الناس فى تقويم الادب شأنهم فى تقويم الجمال في سائر الفنون ، فمن لم يصلوا الى درجة راقية من المدنية يعجبهم من الألوان اللون الزاهى ،كالاحمر القاني والاصفر الفاقع ، ويعجبهم من الأجسام السمين القوى فى ملامحه ، ومن الأصوات الطبل والمزمار ، فاذا بلغوا مبلغا كبيرا في الحضارة أعجبتهم الألوان المتناسقة والألوان الخفيفة ، كما تعجبهم وحدة الفكرة التى تنسق الألوان المختلفة والمظاهر المتعددة ، وأعجبهم من جمال الانسان الرشاقة وخفة الروح ، وأعجبوا بجمال الحركة ، وقوموا جمال المعاني أكثر مما يقومون جمال الملامح ، ونظروا الى جمال الروح أكثر مما ينظرون الى جمال الجسم ، حتى فى جمال الجسم يقومون وحدة التناسق والنسبة بين الأعضاء أكثر مما يقومون جمال الوجه وحده ، وفى الموسيقى تعجبهم النغمات الهادئة ، والنغمات المتناسقة ، والنغمات التي تمثل المعانى . كذلك شأنهم فى الادب يكرهون السجع الدائم ، والكتابة التي اختفت معانيها او ضاعت وراء الزينة المفرطة والزخرف الكثير ، والقافية الطويلة على وتيرة واحدة ، وتعجبهم البساطة في القول والزينة بقدر ، والالفاظ كوسيلة لا غاية ، يكرهون النكت كلها لعب بالالفاظ ، والنكت تلذغ لذعا صريحا ، وتعجبهم النكته أسست على معنى ، والنكتة تلذع فى ايماء ورقة .

ان الاديب اذا رزق حظوة فى السبك ، وأصيب بفقر فى المعنى كانت شهرته وقتية وقيمته محدودة الزمن ، ولا يلبث الناس أن يدركوا ضعفه وفقره فينبذوه ، والاديب الخالد من زاد في معارفنا ومشاعرنا بما فى قوله من معنى وقوة .

أديب اللفظ فارغ الرأس قليل العلم بماحوله ، قريب الغور ، قد ستر كل هذا بزخرف القول كما تستر الشوهاء عيبها بالأصباغ ، رخصت بضاعته فبالغ فى التجمل فى عرضها ، ولفت الانظار اليها . وشعر أنها مزيفة فغضب لنقدها والتلويح بامتحانها . والأمة فى طفولتها وشيخوختها يعجبها هذا النوع من الادب ، لأن خفة رأسها من خفة رأس أدبائها . ولأن العقول السخيفة يعجبها السحر والشعوذة وألعاب البهلوان ، والأدب اللفظي المحض نوع من هذا اللعب .

نظرة في نظام بيعة الخلفاء

النحو الثانى

للاستاذ محمد فريد ابو حديد

— ٢ —

هل استطاع التاريخ أن يصدر حكمه فى ثورة الفرنسيين ؟ إن هذه الثورة قريبة العهد ، فحوادثها قريبة الحدوث واكثرها مدون فى وقته ، مضبوط التواريخ وحكومة اليوم قائمة على تلك الثورة ، ومن اكبر الجرائم فى دولتها أن يعمل أحد على مس نظام الجمهورية الذى وضعته تلك الثورة ، ومع ذلك فانا نجد الافكار مقسمة مضطربة اذا تناولت ذكرها وحوادثها . فقوم من المؤرخين يتشيعون لها ويتغنون بكل ما كان فيها ، وقوم آخرون ينكرون عليها فعالها ، ويزورون من قاموا بها وآزروها .

وهل يستطيع العرب الا ان يكونوا كذلك ؟ فان ثورتهم فى مدة الخليفة عثمان لم تكن ثورة من كل الناس ، وان اشترك فيها كل العرب بالرأى والقول ، وتناولوها بين منكر ومنتصر . ولسنا بسبيل هؤلاء او أولئك ، ولكنا نرى أنها مثل الثورة الفرنسية ، ان اختلفت فيها الآراء فان الكتاب جميعا متفقون على انها كانت ظاهرة اجتماعية طبيعية . فلندع الخوض فى هل كانت تلك الثورة حقا ام كانت باطلا ، وحسبنا من القول أن يقال إنها كانت ثورة طبيعية ، وانها كانت خطوة فى سبيل بناء الدستور العربي . وهي وان لم يشترك فيها كل العرب قد كان فيها ممثلون للانحاء المختلفة من بلادهم ، فقد كان فيها جماعة من مصر وجماعة من مصري العراق ، كما اشترك فيها الاعراب من انحاء جزيرة العرب . وقد جمعت جماعة من الزعماء كما ضرب فيها العبيد بسهم فعدد الثائرين كان محدودا ، ولكن فكرة الثورة كانت ثائرة ،

فاذا نضج عقلها تغير ميزانها ونفذ نظرها الى أعماق الشيء ، لتعرف ماوراء الظواهر . واذ ذاك تقدر المعاني أكثر مما تقدر الألفاظ ، ترى الالفاظ جسما والمعنى روحه ، وترى المعنى غاية واللفظ وسيلة . ولتستحسن اللفظ لذاته ، ولكن لا لفقد المعنى .